كان ذلك فى القطار الذى قام من روما قاصداً إلى فلورنسة ، وقد جلستُ فى مقعد مقصورة من مقصورات العربة ، وملأ المقاعد الخمسة الأخرى مسافرون آخرون أكثرهم من السيدات ، بل الواقع أنه احتل كل المقاعد السيدات ما عدا مقعدين . وسار القطار مسرعاً فى الطريق إلى فلورنسة ، وكان الجو حاراً والشمس ساطعة والسماء صافية زرقاء عميقة الزرقة ، يقطعها أحياناً قِزَعٌ من السحاب الأبيض المتكاسل ، وهو يتخذ أشكالاً غريبة ، فمن جسد نمر إلى رأس مارد ، وأحياناً تأتى فى الصفاء غمامة داكنة حزينة تجرى مسرعة ولا تلبث أن تغمر القطار بدموعها ثم تهرول فى طريقها ، فتعود السماء صافية باسمة . وكان المنظر يكاد يكون ثابتاً بأشجار الصفصاف الطويلة تمد أعناقها إلى السماء . وهو منظر يعتبر رائعاً فى أى بلد آخر غير هذه البلاد موطن الجمال الطبيعى . ولذلك كان الجالسون الستة لا يلتفتون إلى النوافذ إلا قليلاً ، وأخذ الأصدقاء منهم ، فى حديث طويل .

كان الأصدقاء هؤلاء فتاتين دخلتا معا إلى القطار ، وجلستا ساكتتين فى مبدأ الأمر ترقبان السيدتين الجالستين أمامهما فى انتباه ، وهما سيدة عجوز جاوزت الكهولة إلى الشيخوخة ، وسيدة نَصَفٌ تشبهها ، فهى إما ابنة أو أخت صغيرة . ولاريب أن الفتاتين كانتا ترقبان ملابس السيدتين وحلاهما بعين نسوية ناقدة ، ثم أخذتا فى الحديث بصوت خافت ، ثم ارتفع صوتهما شيئاً فشيئاً . وكيف يكون الحديث خافتاً ونحن فى إيطاليا !

لم أكن إلى تلك اللحظة مصغياً إلى تفصيلات حديثهما ، إذ كنت فى شغل بمطالعة بعض الصحف الايطالية ، وآثرت قراءتها قبل أن يصبح الحديث عاماً بين المسافرين ، ففى إيطاليا تتعذر القراءة فى القطار ومضت ساعة ، وحدث ما كنت أتوقع ، وتجاذبت الفتاتان الحديث مع الرجل الجالس أمامى ، وكان هو البادئ بالحديث ؛

إذ أبدت إحدى الفتاتين ملاحظة فأبدى هو رداً ظريفاً مقابلاً ، فكان ضحك ، وكان حوار .

رأيت أن قد حان الوقت لأترك جريدتى ، ولكنى لم أتركها فى التو ، بل اتخذتها حجة للتأمل فى الجالسين ، وفهمت فى الحال ماذا دعا الرجل الذى أمامى إلى التدخل ؛ فقد كانت إحدى الفتاتين صبوح الوجه ، وكانت الأخرى غزلة لعوبا . أما الرجل فقد قدرت له من العمر ما يقل عن الثلاثين قليلاً ، وهو ضخم الجثة متوسط القامة ذو رأس غزير الشعر بين الصفرة والحمرة . ولقد كنت أظنه من الجنس الجرمانى لو لم يكن يتكلم الايطالية فى لهجة بعيدة عن لهجة الأجانب . وليس بمستغرب أن تجد رجلاً أشقر فى إيطاليا فالشقر من الرجال بين أهل شمال إيطاليا كثيرون .

وانتبهت للحديث إذ كانت إحدى الفتاتين تسأله من أى موطن هو . وليس هذا السؤال فى إيطاليا إنكاراً لجنسيته الإيطالية ، وإنما هو سؤال عادى يقصد به معرفة الإقليم ، ففى إيطاليا لاتزال النزعة إلى استقلال الأقاليم قوية .

أجاب الشاب : إنى من نابولى .

قالت الفتاة : نابولى ؟ لا أظن !

قال الشاب وقد أخذ يمد وينغم كلماته على طريقة أهل نابولى فى لهجتهم الثابتة : أؤكد لك أنى ولدت ونشأت فى نابولى ، وأعرف جبلها كما أعرف أعنابها . وأنت من أى موطن تكونين ؟ أجابت وقد ذهب منها كل شك : إنى من أهل فورلى وإن كنت أقيم الآن فى فيرنزى .

قال الفتى : إنها إقليم الورود ، لذلك كانت خدود الفتيات متوردة . ضحكت الفتاة وقالت : تبًّا للرجال !

سأل ضاحكا : لماذا ؟

قالت : لا يأبون إلا العبث

قال : إن الرجال يعبثون بالقول ، ولكن الفتيات يعبثن بالقلوب ، وضحك الجميع وشاركتهم فى الضحك .

وسألته السيدة العجوز : كم بقى من الوقت للوصول إلى فيرنزى أى فلورنسة .

أجاب : لا أعرف فإنى أنزل قبل ذلك .

وتدخلت فى الحديث : أظن أنه بقيت ساعة ونصف ساعة .

قالت إحدى الفتيات : هذا كثير .

فقلت : ليس كثيراً مع أن القطار سريع .

وعندئذ تبينت أن الفتى كان يتطلع إلىّ منذ زمن وسألنى : وماموطنك أنت؟

قلت له : مصرى . وحينئذ رأيت فى وجهه شيئاً من الإنكار ، وإن لم تغش عينيه تلك السحابة الخفيفة التى أخشاها ، والتى تعبر عن شعور كامن فى نفس الأوربى ، عندما يكتشف أن مخاطبه من غير الأوربيين .

لم أر فى عينيه تلك السحابة وإن رأيت شيئاً يدل على الإنكار والحيرة ، ولكنه لم يجرؤ على أن يوجه إلىّ سؤالاً كان يريد أن يوجهه .

قال : لقد أقمت فى الاسكندرية ستة أشهر ، وأنا أعرف مغانيها وأعرف لغتها وقال بلغة عربية لابأس بها : سلامات ! أزيك ، فأجبت : الله يسلمك .

وحينئذ لم يبق بد من توجيه سؤاله :

— هل أنت مسلم ؟

قلت : نعم !

قال : هذا غريب !

قلت : وما وجه الغرابة ؟

قال : معذرة فإنى لم أكن أظن أن المسلمين يعرفون اللغات الأجنبية .

قلت : إذاً فاعدل عن هذا الظن بعد الآن ، فنحن كالأمم الأوربية فينا من يعرفون وفينا من لا يعرفون .

ودار بيننا حوار رقيق فى جمال السيدات وتسلطهن ، وكنت قد عقدت العزم على سؤاله عن نفسه كما سألنى هو ، فقلت له : هل أنت حقًّا من سكان نابولى ؟

أجاب : ولم لا ؟ فسألته : هل أنت تاجر ؟ فأجاب إجابة مبهمة فى مثل هذا النوع من العمل ، ولكننى كنت قبل الآن مؤلفاً ومن قبل فى أسبانيا ، وقد وضعت كتابا عن تلك الحرب ، وأود أن أهدى إليك نسخة إذا قبلت الإهداء .

قلت : شكراً لك ، فأخرج نسخة من كتابه وقال لى : ما اسمك الذى أكتبه فى عبارة الإهداء ؟ وكأنه كان يود أن يتأكد للمرة الأخيرة أنى مصرى ومسلم .

فأدليت إليه باسمى : « محمد عادل فاضل » ، فكتب عبارة الإهداء ثم قال : « الثمن عشر ليرات » .

فأخرجت نقودى وناولته الثمن ، وأخذت الكتاب وقرأت عنوانه واسمه « سنة بين الحمر » . وجلست أقلب فيه لحظة ثم وضعته فى حقيبة ملابسى .

من ذا الذى يستطيع أن يفتح كتاباً فى فلورنسة ! إن فى كتاب الدهر غنى عن القراءة . فهذه المدينة من المدن القليلة التى لا يحتاج المرء فيها إلى مجهود فكرى كى يعود إلى الزمن الخالى أيام مديتشى وسافونارولا ، وعصور رجال الأدب والفن . فهنا موطن دانتى ، ومكيافللى ، وهنا موطن چيوتو ، وميكلانجلو ، ودوناتللو . لتقطع ساحة قصر الحكم ، أليس ذلك المكان الذى كان مسرحاً لحوادث فلورنسة وتاريخها ! ألا تتمثل فى الحال تلك المنصة التى أقيمت لإحراق سافونارولا ، ذلك الراهب الطاهر الذى دانت لدعوته المدينة فحكمها بيد من حديد وهو يعمل على الاصلاح ولكنه نسى أن خطبه الخلابة لا يمكن أن تخضع الناس وتقلب المدينة بيعة كبيرة واحدة ، وهى مركز الثراء والترف والفن ونسى أن الدين والزهد والتقشف شىء ، والكنيسة بعزها وسلطانها وثرائها شىء آخر .

إنك لتسير فى أضيق منعطف وتدور حول أظلم زاوية فلا تجد إلا ما يذكرك بتاريخ حافل أو باسم خالد . وتلك الآيات الفنية الملقاة فى الشوارع إلقاء ، هل تجد ما يماثلها فى أى مكان آخر ؟ فأى كتاب أدب تقرأ لتدع مرورك على الجسر القديم مرتين وثلاثا بل مائة مرة ! وأى كتاب تقرأ لتدع نزهة إلى سان منياتو أو زيارة لقصر بيتى أو معرض الصور فى الأوفيزى !

لنختر مدينة أخرى للقراءة ، فما كانت فلورنسة بالمدينة الصالحة .

الواقع أنى ما وطئت أرض فلورنسة حتى نسيت الكتاب وصاحبه ولم أذكره إلا بعد نصف شهر ، وكنت قد انتقلت إلى مدينة پيروچيا القديمة وشبعت من التفرج على آثارها واستيحاء تلك الانتقامات الدموية بين أسرها .

كان اليوم حارا بالرغم من علو المدينة وجثومها فوق قمة جبل وقد تناولت طعاماً شهيا من المكرونة والشواء ، وشربت قدراً من نبيذ الألياتكو ثم ذهبت إلى غرفتى فشعرت بالنعاس فنمت قليلا ، واستيقظت وأنا أشعر بأنى اصح ما أكون . وبين يدى من الزمن ما بعد الظهيرة بأكمله فماذا أفعل ؟

قد أستطيع أن أذهب إلى متحف أو كنيسة ، وقد أستطيع أن آوى إلى دار كتب الجامعة ، وقد أستطيع الجلوس فى قهوة أتناول من المثلجات مالا يوجد مثله فى بلد آخر. لا ! إننى أريد قبل كل شئ الهواء والنور ، ثم لا مانع بعد ذلك من القراءة . فمددت يدى نحو الحقيبة وتناولت كتابا من الكتب القليلة التى أحملها معى وكان هو كتاب رفيق السفر .

سرت الهوينى لأختار مكانى على مقعد حجرى عند السور القديم الذى ينتهى ببناء الجامعة . جلست أنظر إلى الوهاد العميقة ترتفع وراءها الجبال ، والمنظر تحجبه غلالة شفافة من ضباب أزرق ، ثم بدأت أفض ورق الكتاب وأقرأ تارة وأتأمل فى سكون إلى المنظر أمامى تارة أخرى .

لم يكن الكتاب كبير القيمة ، فهو يحتوى على تفصيلات عدة عن مختلف الفرق التى كانت تقاتل وتناضل فى الحرب الأهلية بأسبانيا من أجل مبدأ الجمهورية أو الشيوعية أو الفوضى أو إن شئت اللادينية ، وما بين هذه الفرق من تنافس وتناحر وهى أمام العدو المشترك . والكتاب يحتوى على حشد من المعلومات ولكنه كتاب ميت لأنه كتب بلا عقيدة ؛ إذ الكاتب لاهم له إلا أن يتلمس نقائص هؤلاء الجمهوريين الذين سماهم الحمر ، مع أنه منضم إليهم . وهو يفعل ذلك لأنه يريد أن يعيش أو يكتسب فى أرض إيطاليا وفى ظل الفاشست . ولا أعتقد أنه كان أكثر إخلاصاً للفاشية .

على أن مااسترعى انتباهى بنوع خاص هو المقدمة التى أهملت قراءتها فى مبدأ الأمر ، فاذا لم يعجبنى الكتاب عدت إليها : « كنت وأنا هولندى ، أعيش فى باريس كمئات من الشريدين أمثالى الذين يأوون إلى تلك المدينة وقد عضنى الجوع وضاقت بى سبل العيش ، فإذا بمن يغرينى بالمال فأذهب معه إلى أحد المكاتب العديدة المنتشرة فى باريس ، وأنخرط فى سلك المتطوعين للقتال مع الحكومة الجمهورية القائمة فى اسبانيا »

فى هذه العبارة فقط رنة الصدق بين جميع آراء الكتاب ، وحينئذ تمثلت لى صورة ذلك الفتى الهولندى المغامر بوجهه المكتنز باللحم وشعره الغزير بين الصفرة والحمرة وجسمه القوى الضخم ، ذلك الهولندى الذى عاش فى باريس ، ولعله زعم أنه فرنسى ، ثم ذهب إلى أسبانيا ثم تركها وجرب الحياة فى مصر ، ثم هو فى إيطاليا يزعم أنه إيطالى ومن أهل نابولى . وفى كل هذه الأحوال يتشكل للحياة

مغامراً غير عابئ وماهو غرضه من مثل هذه الحياة المخطرة : الغنى والثروة ؟ أم لذة الأخطار نفسها ؟ ربما كان هو نفسه لا يعرف مرماه . ولعل مثل هذه الحياة المليئة بالتقلبات هى أكبر غنم فى الحياة نفسها .

ودارت فى خلدى خواطر أخرى ومسائل لا تقل خطورة عن لغز الحياة والموت ، وإذا بى أنتبه فجأة إلى الشمس وهى تغيب من وراء الجبل وقد خنقها الضباب فلم يظهر غير قرصها دون الشفق ، وقمت ألتمس مخرجا من أفكارى التى أخذت تظلم من جوّ النفسانى بأن أقصد إلى القهوة لأجلس بين الناس وأرشف شراباً ذا مرارة .

مهدى محمود